أن يزيدوا من عدم شعبيتهم بعدما قاموا به من اضطهاد . وظن كثير من الناس ان إيڤان بعد تتويجه قيصراً وبعد أن أصبح زوجاً سيعمل على تحسين أحوال رعاياه ، ولكن وهمهم ما لبث أن انهار فقد كان القيصر مشغولاً بصلواته وغارقاً في ملذات حياته الزوجية أو بالصيد أو بالحج. وكانوا يعرفون أنه صاحب مزاج رهيب وانه لا يقبل ملاحظات من أحد. كان بإمكانه أن يغضب من رسول أو من خادم وينزل به العقاب بالضرب حتى الموت ، ويا لتعاسة فلاح أو بائع كان يوجد في طريقه عند ذاك .

وقد رد شعب موسكو عليه وعبروا عن كل الحقد الذي يحملونه في صدورهم على آل غلينسكي عن طريق إشعال حريق كبير . فقد اندلعت في الثاني عشر من نيسان أبريل عام ١٥٤٧ نار كبيرة في موسكو ولكن أمكن إطفاؤها . إلا أنها عادت فاشتعلت من جديد في العشرين من الشهر نفسه وأطفئت ايضاً . وشب حريق ثالث في مطلع حزيران يونيه أذكته ريح قوية وكان من الصعب التغلب عليه . كان ثمة اشخاص مجهولون يضعون النار في المدينة على الدوام .

ولم يعر إيڤان إلا اهتماماً قليلاً لهـذا الحريق . وكانت بعثة من البورجوازيين من مدينة پسكوف قد قدمت لمقابلة القيصر في أوستروڤكا في نهاية أيار مايو من ذلك العام ، وكان أوستروڤكا أحد البيوت الملكية في الريف . وينبغي علينا أن نوضح أن البسكوفيين كانوا أكثر جرأة من أي شعب آخر لأن بسكوف كانت آخر مدينة كبيرة ألحقت بموسكوڤيا ، ولولا جراتهم لما عرضوا انفسهم لغضب القيصر بتقديمهم إليه عريضة كالتي يحملونها . وكان آل غلينسكي قد كلفوا رجلاً مرتشياً بإدارة هذه المدينة . والبعثة التي قدمت وبرفقتها عدد من الشهود كانت تحمـل قائمة طويلة من المطالب وتتألف من سبعين عضواً سجدوا كلهم عنـد لقائهم بإيڤان . وبدلاً من أن يمنحهم القيصر آذناً صاغية وضع في أيديهم الأصفاد . اما أن نقول بإنه كان يسخر منهم فإن ذلك لم يكن وصفـاً كافياً ، فقد سكب على رؤوسهم الكحول الحار ثم مر عليهم واحداً واحداً